

يومان .. بعد الإجازة

- ١ -

أنا في اليوم الأول في عملي، بعد عودتي من الإجازة. على شاطئ البحر عشت مع الزوجة والأولاد ستة أيام في إجازة. في عيني زوجتي رأيت ما لم أكن أراه من قبل، حللنا معاً في البحر، عانقنا الأفق، تنسّمنا الهواء، نسجتنا الشمس، وعلى الرمال رسمنا خطانا معاً، فحملها الموج إلى شواطئ العالم كله نغماً وذكرى. تراكض الأولاد أمامنا، سبحوا في البحر، تألقت عيونهم فرحاً، سرق عريهم من الشمس البهجة، أمسك بعضهم أيدي بعضهم الآخر، تقافزوا غنوا رقصوا، شممننا فيهم ريح البلد والولد، حلّقنا معهم، مثل سرب حمام، أحسسنا أننا حقيقة أم وأب. ومن حولنا رأينا الناس يملؤون الشاطئ، يطفون على سطح البحر، مثل مجرات السماء يتألقون، يشعون أنقياء أصفياء كالموسيقا، أحسست أني واحد منهم، وأنا جميعاً بحر في بحر.

سألني ولدي الأصغر أمجد: هل للبحر نهاية؟ وسألني خالد: من أين له هذه الزرقة؟ وسألني ابنتي الكبرى أمل: من أين تأتي هذه النوارس؟ وإلى أين تذهب؟

لا يكفي القول إنني في البحر نسيت كل شيء، فما عشناه على البحر أنا وزوجتي والأولاد والناس جميعاً أكبر من أن ينسى، وأجمل، هو شيء آخر مختلف.

مع الرمل والموج والهواء والشمس بنيت خلايانا كلها في ستة أيام بناء آخر، ونحن في لقاء بعضنا ببعض عرفنا ما لم نعرفه من قبل: السماء والبحر والنوارس والمراكب والأمواج والشروق والغروب والهواء والأفق الرحب والناس، كل شيء هنا مختلف في عرض البحر نستقبل النسيم والموج والشمس والهواء بالوجه والصدر، نودع في الأفق البعيد الشمس الغاربة، نرى إبداعاتها وهي تغيب، نهر حتى يأفل القمر، نحدث الليل ونؤنسه ونسامره بالغناء والأشعار، نغفو سويحات، ثم نستيقظ بالنشاط كله، لنستقبل الشمس الساطعة كاليقين.

نحن هنا بين يدي الخالق، عزّ شأنه، أمام بديع صنعه، وجميل خلقه، نحن في قلب الطبيعة، لا تبخل علينا بشيء ولا تظن، وكيف تبخل علينا؟ وهي الأم الرؤوم، ونحن جميعاً أبناءها، كل شيء هنا مبذول: الماء والهواء والشمس، وهذا كل ما نحتاج هنا إليه، لا حاجة بنا هنا إلى الرياء والخداع، لا حاجة بنا إلى الزيف والقشور، نحن لا نعرف هنا شيئاً من ذلك، يجمعنا الحب والصفاء، لقاؤنا أنس

وشذى، فلا كدر ولا كيد، ولا حزن ولا هم، لاشيء سوى أن نحيًا.

في اليوم السابع نزلنا إلى المدينة، هبطنا إلى الأسواق المزدحمة والشوارع المكتظة، حشرنا في الغرف الضيقة، والمكاتب الخائقة، غرقنا بين أكوام من الملفات والأوراق والأختام والتوقيعات، كل شيء يجب أن ندفع ثمنه حتى الماء والهواء، وبدأنا نسمع القيل والقال، وبدأنا نكذب ونقسم الأيمان.

هل أحدثك عن أول يوم بعد الإجازة؟

- ٢ -

أنا هنا في مكتبي في اليوم الثاني بعد عودتي من الإجازة. ها قد عدت إلى موقعي، أنا الآن وراء مكتبي، أجهزة الهاتف الثلاثة إلى جانبي، والحاسوب يصلني بالعالم كله من خلال شبكة المعلومات، والسكرتيرة تحضر لي البريد، ومدير المكتب ينظم دخول المراجعين، والآذن يعد لي القهوة، لقد انتظم عملي، واستقرت حياتي، هنا أمارس وجودي الحق، هنا أحقق ذاتي، الملفات والأوراق تذهب وتجيء مثل موج البحر، وأنا أوقّع عليها، هي أجمل من موجات البحر، هناك مللت من موجات البحر، مكرورة متتابعة، لا جديد، فنجان القهوة هنا وأنا وراء

مكتبي أحب إلى نفسي من كل السفن والمراكب، هنا الحياة، ما من مراجع إلا وهو مستعجل، ما من مراجع إلا ووراءه مشكلة، هذه هي الحياة، الناس هناك في البحر لا هم لهم، ولا مشكلة عندهم، ولا شغل لهم سوى السباحة والتسلية والصخب والسهر إلى الفجر ثم النوم حتى الظهيرة، لقد تغير نظام حياتي هناك، بل تغير نظام الأسرة كلها، ولدي الأصغر أمجد كاد يفرق، خالد ملأ الرمل أذنيه، ابنتي الكبرى أمل أحرقت الشمس جلدها، نصحت لها ألا تسبح عند الظهيرة، ولكنها لم تسمع، زوجتي زاد وزنها، وترهّل جسمها، إذ لا عمل لها أمام البحر ولا شغل، لا بد من الاعتراف بأنني دهشت في اليوم الأول بروعة البحر، واستمتعت قليلاً في اليوم الثاني، ولكني في اليوم الثالث مللت، لا أصدق كيف أمضيت ستة أيام، لا أعرف ما ذا حصل في أثنائها هنا في المكتب، وما لم أكن أتوقعه هو إنفاقي ضعف ما كنت أتوقع، أنفقت كل ما ادخرته للبحر وضعفه، وهناك لا أحد يعرفك، كل الناس عراة، قد يصدّمك ولد طائش وهو يركض على الرمل، ولا يعرف أنك مدير فرع، وعضو مجلس إدارة، وأنت مرشح إلى منصب المدير العام، والأسوأ من ذلك كله أن تتلقى نظرات ساخرة من صبية وهي تنظر إلى كرشك هذا، أما هنا وربطة العنق

الحريرية تزينه فهو كرش الوجاهة، حتى السيكارة هنا وراء
المكتب لها طعم مختلف وشكل آخر مختلف.

ومع ذلك كله لا بأس في يومين يمضيهما المرء على
شاطئ البحر، ليعود إلى مكتبه ثانية، فالحياة الحقيقية هنا
وراء المكتب.

